من آيات الله

فى النبات

قال الله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إن المتأمل فى هذه الآية الكريمة يجد أنها تأخذ بنا إلى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض، مشاهد تراها الأعين، وتستجليها الحواس، وتتدبرُها القلوب، وترى فيها بدائع صنع الله والسياق القرآنى يعرضها كما هى فى صفحة الكون، ويلفت إليها النظر فى شتى أطوارها، وشتى أشكالها، وشتى أنواعها، ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية، ودلالة على القدرة التى تبدع الحياة، كما يوجهُ القلبَ إلى استجلاء جمالها، والاستمتاع بهذا الجمال.

والآية الكريمة تكشف عن علاقة السماء بالأرض، وتبين أنها علاقة عطاء وتفضل وتكامل. فالماء ينزل من السماء، فيكون رحمة ونعمة، تهتز له الأرض وتستجيب، فإذا هى تربو وَتُنبتُ من كل صنف ناضر بهيج. قال تعالى فى سورة الحج: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. والأرض قبل نزول الماء تكون هامدة. والماء هو العنصر الأصيل فى الحياة والأحياء. فإذا نزل الماء على الأرض اهتزت الأرض. والاهتزاز حركة عجيبة، سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات السنين. فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهى تتشرب الماء، وتتفتح فتربو، ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج.

وقال تعالى فى سورة فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى فى سورة ق: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٧-١١].

ومشهد الإنبات فى الأرض بالماء النازل من السماء، مشهد له دلالته العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج.

ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شئ دور واضح، يعلمه البدائى والمتحضر، ويعرفه الجاهل والعالم. ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يُخاطبُ به القرآن الناس عامة. فقد شارك الماء ابتداءً بتقدير الله فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات إذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الأرض كان فى فترة ملتهباً ثم صَلْباً، لا توجد فيه التربة التى تُنبتُ الزرع، ثم كانت التربة بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة، ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة، وذلك بإسقاط [النتروچين- الأزت] من الجو كلما أبرق، فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو، النتروچين الصالح للذوبان فى الماء، ويسقط مع المطر، ليعيد الخصوبة إلى الأرض، وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه، فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة، وهو المادة التى يخلو وجه الأرض من النبات لو نفذت من التربة.

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أنزل من السماء ماءً بقدر، مباركاً، ورزقاً للعباد، وإحياءً وغياثاً للخلائق، رحمةً من الله بخلقه، فأخرج بهذا الماء كل أصناف النبات، ومنه الزرع، والشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وكل نبت يبدأ أخضر، واللفظ«خضراً» أرق ظلاً، وأعمق ألفة من لفظ. «أخضر».

ومن النبات الأخضر ما يخلق الله فيه الحبَّ الذى يركب بَعْضُهُ بَعْضاً كالسنابل، ومنه النخل الدانية العزوق، القريبة التناول.

ويخرج بهذا الماء جنات من أعناب، ويخرج به الزيتون والرمان المتشابه فى الورق والشكل، والمتخالف فى الثمار، شكلاً، وطعماً، وطبعاً. كل ذلك يستأهل النظر، ولذلك أمر الله بالنظر إلى ثمره حين نضجه. ﴿**انظروا إلى ثمره إذ أثمر وينعه**﴾ انظروا إليه بالحس البصير، والقلب اليقظ. وانظروا إليه فى ازدهاره، وازدهائه، عند كمال نضجه. انظروا إليه، واستمتعوا بجماله. ليتفكر الإنسان فى قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، فبعد أن كان حطباً صار رطباً، ولقد خلق الله سبحانه وتعالى من الألوان، والأشكال، والطعوم، والروائح الكثير. إن فى هذا كله لآيات، ودلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء.

وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعه الله، الذى أحسن كل شئ خلقه، ولم يجعل خلائقه متعادية، متدابرة، بل جعل الإنسان يعيش فى كون مأنوس صديق، وفى رعاية قوة حكيمة مدبرة. يعيش مطمئن القلب، ينهض برسالته فى الحياة وهو مطمئن اطمئنان الواثق بأنه معان، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة.. ويتحرك لمواجهة كون صديق، مكن الله له فيه وجعل له فيه أرزاقاً ومعايش، ويسر له المعرفة، وجعل نواميس هذا الكون موافقة لوجود هذا الإنسان.

﴿**إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ فالإيمان هو الذى يفتح القلب، وينير البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة فى الفطرة، ويصل الكائن الإنسانى بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى الأرض وفى السماء، والمؤمنون هم الذين يدركون الآيات لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر لتلقى الإدراك.

* * *